

فنُ الأدبِ النبويِّ
مُقارَبةٌ دَلاليَّةٌ

Art of the Prophetic Literature
(Pragmatic Approach)

م . د فلاح رزاق جاسم
Lectur.Dr.Falah Razaq Jassim

فن الأدب النبوي

مقاربة دلالية

Art of the Prophetic Literature
(Pragmatic Approach)

م . د فلاح رزاق جاسم
جامعة الكوفة / كلية الفقه / قسم علوم الحديث الشريف

Lectur.Dr.Falah Razaq Jassim
Department of Holy Hadith Sciences
College of Theology, University of Kufa

moktary011@gmail.com

تاريخ التسليم: ٢٠١٨/١٢/١

تاريخ القبول: ٢٠١٩/١/٣

خضع البحث لبرنامج الاستلال العلمي
Turnitin - passed research

ملخص البحث:

أجمع أرباب اللغة والأدب وأصفق أهل البلاغة والفن على أن الرسول الأعظم "ص" هو أفصح العرب فهو القائل "ص" أنا أفصح من نطق بالضاد. بحكم العلم اللدني الموحى به إليه - فلا غرو إذن في أن الصحيح ما يصدر عنه يتسم بالذروة في البلاغة والقمة في الفصاحة وبسائر الخصائص الفنية والبناء الفني الذي تتطلبه - أفانين البلاغة ذلك أن الكلام والبيان المأثور الصادر عنه "ص" يتأطر بثلاثة أطر تلك هي التعبير العلمي والفن القوي وثالثة الأنا في ما يجمع بين لغة العلم ولغة الفن والسر في الأمر أن هدفية التشريع الإسلامي تنصب في إيصال قوانين ومبادئ السماء للناس بكل ما من شأنه إبلاغ ذلك بكل وسيلة أو طريقة يستخدمها المعصوم للوصول إلى الهدف المنشود فتارة يتم إيصاله بالموقف العلمي وأخرى يكون بالتعبير الفني وثالثة ما يجمع بين كليهما ، من هنا انبثقت فكرة البحث في إبراز النصوص الأدبية النبوية لبيان فنيتهما وكشف سر جمالها فان إبراز فن العبائر وإحكامها وإخضاعها لمتطلبات آليات النقد الأدبي الفني بما يتصل بالعناصر اللفظية الفنية وكشف أبعادها الدلالية مما يلعب دورا مهما على مسرح النص وإكسابه سمة الفن بما هو مسطور في غضون البحث هذا ومنه تعالى نستمد العون والتوفيق وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

Abstract

All the experts of language and literature and the people of eloquence and arts reach consensus on one fact that the greatest messenger is the most eloquent of the Arabs as he said that he is the most eloquent one in uttering the "dh" on the basis that he receives all the kinds of science . No vanity about saying that whatsoever he says is wreathed with the pinnacle of eloquence and the other necessary artistic values . The speeches the prophet delivers consist of the scientific expression, the art of the rhetoric and the content to yoke altogether the scientific language and that of arts . The secret of such a procedure lies in the target the prophet or the infallible chooses to convey the divine message , the Islamic law , to all people at all means . Sometimes he does it by a scientific language , sometimes by the artistic expression and sometimes by an amalgam of them . That is why the current article finds existence in manifesting the prophetic literary texts to fathom the artistic values and the secrets of their beauty. Explicating the art of rhetoric in these texts and exposing their pragmatic scope are the core mission of the research study. No succour but from Him , the last we do is to thank Him, the Evolver of the worlds

المقدمة

جسد القرآن العظيم والحديث النبوي الشريف نصوصاً أدبية وبيانية شرعية، وقد اتصف الاول بكونه فناً معجزاً والثاني بكونه فناً نبوياً معصوماً ملهماً اهمته السماء محمداً النبي ﷺ وحيث انه معني بتوصيل مبادئ اطروحة السماء القرآنية فمن الضروري معرفة فن وادب الحديث الشريف بعدما كفانا مؤنة بيان فن القرآن الكريم علماء البلاغة وصيارفة النقد، ومعلوم اشارة القرآن الى انه ﷺ لا ينطق عن الهوى وعليه فان هذا التلميح لا يخص القرآن فحسب بل ما يشتمل عليه الحديث الشريف في شكله ومحتواه ولعل ما يؤكد ذلك قوله ﷺ: (انا افصح من نطق بالضاد) اذا ما اخذنا بنظر الاعتبار صيرورة الفصاحة كالبلاغة وذوبانها فيها وترادفها معها وان البعد البلاغي هنا لم يقتصر على الكلمة في بنيتها اللغوية او على الجانب الصوتي منها بل يتعدى الى ابعد من ذلك متمثلاً بالبعد الفني الجمالي والحس الدلالي ولعله ﷺ بإشارته تلك (انا افصح من نطق بالضاد) يكون قد عنى فيها الجانب الاخير بعد حس معصومية كلامه ﷺ من الخطأ في المقام والمقال والزلل في الاداء الفني من هنا يمكننا ادراك القدرة الفنية الفائقة للأدب النبوي المعصوم بعيداً عن القشور وفصول الكلام وزخرف القول والتزويق اللفظي شأن بني البشر العاديين فنجد في ادبه ﷺ وفنه الدقة العجيبة والضبط الشديد والاتقان البالغ والامانة التامة في النقل والحفظ ولا عجب ان يتبوأ الرسول الاعظم ﷺ الذروة في لسان العرب وان ينفرد بعرش البلاغة والفن طالما امدته السماء بمعجزة القرآن فصقل بها لسانه ورفع بها بيانه وتأسيساً على ذلك نلمح من بيانه المبارك ﷺ الجمع بين عموم ما يتم ايصاله بلغته المبلغة وخصوص ما طرز به كلماته من فن القول وعنصر الايقاع والجرس المؤثر واحكام ذلك بتمثله لمتطلبات البلاغة ومقتضيات

التعبير من تقديم وتأخير وحذف ووصل وتشبيه واستعارة وسائر الفنون الاخرى على ما سيأتي عرضه وقد اخذ البحث على عاتقه بيان هذه القضية مستعرضاً وقائع تلك الاشارات البلاغية البيانية الشائعة في ادبياته وحكمياته ﷺ وقد انتظم في مبحثين تناول الاول منها قضية الفن ومتطلباته وما يدور في فلكه .

اما المبحث الثاني فانهقد لبيان شذرات تطبيقية من تلك النوادر البيانية وفن الادب النبوي وجاءت الخاتمة ملخصة لمجمل ما جاء في البحث وختمته بقائمة المصادر والمراجع المعتمدة .

وبعد فهي محاولة متواضعة بقصد التعرف إلى جانب من ذلك الادب النبوي المعصوم ولبنة لمشروع عسى ان يعين الباري تعالى على اكماله سائلاً اياه العون والتوفيق والتسديد عليه توكلت واليه انيب والله من وراء القصد .

المبحث الاول : ماهية الفن وفلسفته وغاياته

الكلام عن الفن يتطلب تقديم تعريف به فهو كلمة مشتركة تدل على معان متعددة فمنها الفنون الجميلة كالرسم والموسيقى والتصوير ومنها فنون اخرى مثار حديث الناس كفن التجارة وفن الحياكة وفن الطبخ وفن الزراعة ونحوها من الفنون ولا بأس بالتعريف اللغوي لكلمة الفن فقد جاء ان (الرجل يفنن الكلام اي يشقق في فن بعد فن. وافتن الرجل في حديثه وفي خطبته اذا جاء بالأفانين وافتن اخذ في فنون من القول) ^(١) ، ويقال كذلك (فن فلان رأيه اذا لونه ولم يثبت على رأي واحد والافانين الاساليب هي اجناس الكلام وطرقه ورجل متفنن اي ذو فنون) ^(٢) ، اما المعنى الاصطلاحي للفن فان لهذه اللفظة معنيين :عام وخاص فهي بمعناها العام تشمل اي عمل او مجموعة من الاعمال الإنسانية المنظمة الرامية الى تحقيق هدف معين والدالة على شيء من الحذق والمهارة وعلى هذا ينضوي تحت هذا المعنى للكلمة جميع الحرف والصناعات والمهارات اما المعنى الخاص للفن فهو كل عمل راق يهدف الى ابتكار ما هو جميل من الصور والاصوات والحركات والاقوال فهي بهذا اللحاظ تعني (الاعمال الإنسانية المنظمة الراقية العلمية وتختص بابتكار الاشياء التي تتصف بالجمال لما تحدثه في النفس من لذة وسرور ومن هذه المبتكرات كل الاعمال والاثار الفنية التي تتمخض عنها قرائح الفنانين) ^(٣) ، ومع كل ذلك فقد اختلف نقاد الادب قديماً في مفهوم الفن ومادته والمال منه فهو بنظر بعضهم ترف ومتعة ^(٤) ، وقد يكون تقليداً للطبيعة ^(٥) ، وقد يكون ابتكاراً ^(٦) ، وقد تكون قيمته مستمدة من الوظيفة التي يؤديها ^(٧)

وقد لا يكون الفن عند الاخرين انتاجاً للجمال في اي عمل فني وانما هو اظهار لوجوده وكشف للستار عنه وعرضه امام الناظرين كي يملونه او يتذوقونه والقارئ

بعد ذلك يحاول التعبير عن هذه الخواطر والمشاعر والتصورات بطريقة فنية من لفظ ولحن او خطوط او الوان وتأسيساً على ذلك فان الفن من اكثر الالفاظ شيوعاً ومن اكثر المعاني تنوعاً وهكذا (تتسع دلالة هذا اللفظ لتشمل دوائر النشاطات الانسانية على اختلافها سواء ما كان منها نشاط يقصد به الى غاية نفعية معيشية اكفاء لحاجة مادية من مأكّل وملبس ومسكن وغيره ام كان نشاطاً روحياً لا يتوخى القائمون به استخدامه لأي انتفاع مادي وانما يسعون من ورائه الى التعبير عن ابعاد نفسية وتلبية احتياجات معنوية تتسامى بها الروح في نزوعها الدائب نحو القيم الرفيعة والمثل العليا وفي شوقها الى المطلق وعطشها الى الكمال وابداع الجمال ...) ^(٨)، من هنا اذا كان الانتاج الصناعي فناً لاقتضائه مهارة في الصنع وحثاً في الممارسة واذا كان الانتاج الابداعي فناً كذلك لاستلزامه جملة قدرات عقلية وطاقات نفسية ومهارات دقيقة اذا كانت الفنون الصناعية لا ترتقي الى مراتب الفنون الابداعية لارتباطها بغاية نفعية وهدف مادي مباشر فان الفنون الابداعية قد امتست وحدها في لغة الفكر تستأثر بمصطلح الفن لأهدافها المعنوية وغاياتها الجمالية السامية وعلى هذا الاساس فان مفهوم الفن يعني هنا تعبيراً جميلاً عن معاناة انسانية باعتبار (ان مضمونه يرتكز الى التجربة الانسانية في اطار الحياة والمصير وباعتبار ان غايته الابداعية تتجسد في الاشكال الجمالية والاساليب التعبيرية التي يتوسلها تحقيقاً لتلك الغاية المجردة ..) ^(٩)، وعليه فان تكامل العمل الفني وتعاضم قيمته الابداعية تكمن في اكتناز المعاناة والتوأم اعمق التجارب الانسانية المصيرية والانفتاح على اتجاهات التقدم الحضاري في مجرى الفكر والتاريخ من جهة وفي المجال الابداعي بشكل متميز واسلوب جمالي منفرد من جهة اخرى ان ما يهمننا من هذه الاشكال المختلفة للفن هو الفن الادبي والقولي بالتقاط الالفاظ الخفية البارعة بما لا تدركه عقول سائر الناس العاديين ذات

القدرة التعبيرية الخاصة التي تستطيع ان تحول الاحساس بالحياة والتفاعل معها الى لون من الاداء الجميل يحرك في النفس حاسة الجمال^(١٠)

هذا وان لأدراك الفن ادوات والمعيار الذي يمكن به التعرف الى وجود الفن وادراك قيمته راجع الى التأثير الوجداني ، فالوجدان هو الذوق الذي يتم به ادراك الفن وتذوق الجمال وبمقدار ما عند الفنان والاديب من احساس وجداني وارهاف عاطفي يكون الاستعداد لتقبل بواعث الجمال والاستجابة لها مثلما تدرك الحواس كالعين والاذن الفن وتتذوق الجمال فان العين تلحظ المناظر والمشاهد وتنقل الى النفس الالوان والصور والاشكال والحركات والاشارات وكذلك الاذن فانها تسمع مختلف الاصوات وتنقل للنفس ايقاع تلك الاصوات وموسيقاها من هنا يمكن القول ان امر تذوق الجمال واردة الفن نابع من الفطرية الانسانية السليمة غاية الامر توقف ذلك على قيمة الفن من المنظر الذي ينظر اليه فمن يلاحظه من زاوية او حقل اقتصادي فسيعدده لوناً من الترف او ضرباً من التسلية اما النظر اليه من ناحية فنية جمالية فسيعتبره حقيقة اساسيةً من حقائق الوجود والحياة.

والفن الادبي هو اهم انواع الفنون على الاطلاق، ففيه تتجلى مهارة الفنان وحذقه حين قيامه بإنتاج كلمات ومضامين تشكل معرضاً للصور الفنية و أعمال العاطفة والاحساس المرهف في هذا السبيل وفسح المجال للخيال الواسع في ان يرتاد الافاق الواسعة الجميلة ويمكن الاشارة الى ان الفن والاحساس بالجمال يأخذ صوراً و تمثلات مختلفة عند الفلاسفة والديانات السماوية الثلاثة^(١١)، اما عن علاقة الدين بالفن - كما المعتاد فانها مرتبطان ارتباطاً عضويّاً بوصفهما ظاهرتين تحاولان تفسيراً موحداً للعالم وللتطور الاجتماعي والروحي هذا وللفن مصاديق وعناصر مؤثرة

في تكوينه وللفنان شرائط ومقومات ومثلما يعد الفن اداة لتطوير المجتمع وتحسين ادائه يمكن الاساءة اليه من خلال استغلاله^(١٢) اذا ادركنا هذه الحقيقة فيحق لنا ان نستخلص مدى فنية وادبية النصوص الواردة عن النبي ذلك ان البلاغة التي تفرد بها مماثلة للعلم اللدني الذي الهمة الباري تعالى اياه بما يترفع عن المعايير البشرية لسائر الأشخاص، والحديث الشريف هو لون من ألوان الادب بكل ما يحمله من شمول في المعنى الادبي وسمو في المعنى الاخلاقي وفن الحديث النبوي الشريف هو الكيفية التي يعبر بها المحدث عن افكاره وبما ينقل من خلالها من انفعالات واحاسيس والكيفية هذه لا شك تستمد قدسيتها وطاقتها من لغة المحدث والمتكلم والمقصود به هنا نبينا الاعظم ﷺ الذي هو افصح العرب دون منازع وهو الذي ادبه ربه فاحسن تأديبه، ومادة البحث هي كلماته وبياناته ﷺ البعيدة الغور البليغة المؤدى؛ لذا وسم البحث بعنوان فن الادب النبوي بانتزاع الدلالات المكتنزة فيه بما ان الحديث الشريف ركن من اركان الشريعة المقدسة بعد القرآن الكريم وان الفن غايته التعبير عن الجمال واطهاره بأبهى اشكاله واجمل حله وبما ان الدين الاسلامي صنو الحقيقة والباحث عنها فان الفن يبحث عن الجمال وعلى اعتبار حرص الحديث الشريف على قضية الاخلاق فان فنية الادب النبوي تكمن في منظومة الحكم والمواظ والادب والارشادات فهو يلتقي اذن في حقيقة النفس بالفن وكلاهما ضرورة ذلك ان الفن في الحديث النبوي هو التعبير الحر الجميل عن الجمال ، جمال الكون والحياة والانسان وذلك من خلال تصور الاسلام للكون والحياة والانسان^(١٣)، ثم ان فن الحديث هو الذي يهباً اللقاء الكامل بين الجمال والحق فالجمال حقيقة في هذا الكون والحق هو ذرة الجمال^(١٤)، والغرض من ذلك كله استخلاص العناصر الفنية الكامنة في الادب النبوي وادراك قيمه الفنية من خلال ما حققه النبي الاكرم ﷺ

من معان سامية فيه ومن عمق انفعال ورحابة خيال وقوة اسلوب واستمرار ايجاء وسيتوافر البحث على ابرز هذه العناصر الجذابة في الادب النبوي قدر ما يسمح به مجال البحث والا فيصعب حصر الاحاديث النبوية الشريفة مثلما يصعب القطع بإكمال شرحها وتفصيله مع ما تتضمنه من ابعاد في المعنى وروعة في الصياغة والاداء مع السعي لذلك قدر الطاقة والله المستعان.

المبحث الثاني : العناصر الفنية في الادب النبوي الشريف

الخصائص الفنية للأدب النبوي

تنطلق قواعد النقد الادبي النبوي من الحديث الشريف المروي عن الرسول الاعظم ﷺ (ان من البيان لسحرا)، فليبيان العربي تأثيره في القلب والعقل بما يقارب حدود السحر وكذا تأثيره الجمالي البارع الذي يسيطر على مشاعر الانسان ويخلب لبه، وتلك هي القيمة الفنية والتشريعية للحديث فضلاً عن ان وظيفة التعبير في البيان السحر تكمن في (الدلالة المعنوية للألفاظ والعبارات تضاف الى هذه الدلالة مؤشرات اخرى يكمل بها الاداء الفني وهي جزء اصيل من التعبير الادبي هذه المؤثرات هي الايقاع الموسيقي للكلمات والعبارات والصور والظلال التي يشعها اللفظ وتشعها العبارات)^(١٥)

لان الصور والظلال والايقاع ليست قيماً تعبيرية لفظية مجردة من العنصر الشعوري لان الخيال يتأثر بها والشعور يمتلاها مع ما في جرس الالفاظ ذات الصلة بالمشاهد او الحالات من وقع خاص فله حسابه في الدلالة وكثير جداً (من الالفاظ قد اتخذ على مدى العصور دلالات مختلفة .. وقد تنتقل من الحسية الى المعنوية كما تنتقل عن طريق المجاز والاستعارة الى دلالات اخرى معنوية متداخلة)^(١٦)، وهذه الفنون متداخلة مع الادب كقيم تحاول التعبير عنها مباشرة او التعبير عن وقعها في الحس الانساني اذ لا يمكن فصل تلك القيم عن التصور الكلي للحياة والارتباطات فيها بين الانسان والكون اذ ان للإسلام تصوراً معيناً للحياة تنبثق منه قيم خاصة لها ذلك ان من اهم خواص الاسلام انه (عقيدة ضخمة جادة فاعلة خالقة منشئة تملأ فراغ النفس والحياة وتستنفد الطاقة البشرية في الشعور والعمل وفي الوجدان

والحركة فلا تبقى فيها فراغاً للقلق والحيرة ولا للتأمل الضائع الذي لا ينشئ سوى الصور والتأملات) (١٧)

وما يهم ذكره هنا ان العنصر النفسي اصيل في النص الفني المعصوم وبارز في كل خطوة من خطواته ويأتي استجابة معنية لمؤثرات خاصة ومن حيث الوظيفة فهو (مؤشر يستدعي استجابة معينة في نفوس الآخرين ، وهذه الاستجابة التي هي مزيج من ايجاء العمل الفني وطبيعة المستجيب له من الناحية الاخرى) (١٨) ، وباستطاعة المنهج الفني تفسير القيم الفنية شعورية وتعبيرية المختزنة في العمل الفني كي نحكم على النص الادبي وتصوير الخصائص الشعورية والتعبيرية فيه وحيثذ فان (قسماً من هذا التصوير وذلك التفسير تتدخل فيه «الملاحظة النفسية» وهي اشمل من علم النفس كثيراً) (١٩) ، كي نحكم من خلال دلالة النص الفني على نفسية منشئه وملاحظة هذه الدلالة واستنطاقها ولعل من خصائص تلك الدلالات لفن الادب النبوي ونحن في صدد الدخول في هذا الامر هو انفراد ﷺ بجوامع الكلم وفي اسلوب الحديث الشريف من خلال وحدة النظم فيه بما يجعل الفن الادبي فيه في ذروة البلاغة الانسانية (٢٠) ، والسر هو ان (القيم اللفظية والبنائية هي التي تلعب الدور الكبير في اضافة عنصر الجمال على النص) (٢١) ، ويأتي السياق ليحدد قيمة الصورة الفنية والادبية وما ينبغي ان تكون عليه من طابع مباشر او غير مباشر وفي ضوء هذه الوقائع والحقائق لا بد من عرض سريع للنصوص الادبية النبوية التي لها قيمتها الكبرى فنياً ومضمونياً بما يعد ارقى اسلوب بعد القرآن الكريم بعد صحة صدوره والملاحظ ان الاحاديث الواردة عن النبي الاكرم ﷺ تبلغ الحصة الاكبر والرصيد الاضخم من ذلك تعقبها رسائله ﷺ الموجهة الى الرؤساء والامراء يليها خطبه ﷺ ووصاياه وحواراته وسنسى لبيان الجانب الفني والادبي في احاديثه

واقواله عليه السلام لثلا يطول الكلام ومن ذلك قوة الاسلوب الذي هو جسد المعنى كما يقول ابن رشيقي ^(٢٢) ، فهو فن من الكلام يكون قصصاً او حواراً او تشبيهاً او مجازاً وكناية وقد يكون تقريراً او حكماً وامثالاً ومن صفاته الايجاز وصدق التعبير والوضوح لقصد الافهام والقوة لقصد التأثير والجمال لقصد الامتاع او السرور ^(٢٣) ومن ذلك قوله عليه السلام (لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر وليلحينكم الله كما لحت عصاي هذه) ^(٢٤) ، وكان عود في يده.

ومن الواضح هنا ان فريضة الامر بالمعروف والنهي عن المنكر تعد قاعدة اجتماعية كبرى في الآداب والاخلاق ينبغي اعتمادها لدى كافة المجتمعات وفي كل العصور فيها يصلح الفرد ويصلح شأن المجتمع اما القيمة الفنية في هذا الحديث فتكمن في عبارة (ليلحينكم الله) والاحية جمع لحاء وهو قشرة الشجرة ولا بد من التنبيه الى ان قشرها قوة لها ففي زواله يعني تعرض جسمها للفساد والخطر نتيجة العوامل الجوية المؤثرة فيكون المراد هنا ان البارئ تعالى ينقص من اموالكم وثرواتكم وينزل عليكم المصائب العظام فتصبحون كالأغصان المنتصبه المجردة من اوراقها العارية من الحيتها فتبيت قضبناً عارياً وعيداناً خاوية معرضة في كل لحظة وآن لشتى المؤثرات الخارجية وقوارص الدهر القاضية وكما يقال لحاه الدهر لحي العصا بمعنى قساوته عليه في اولاده او رزقه او انعامه التي انعمها البارئ تعالى عليه ذلك ان تلك النعم بمثابة اللحاء للعصا تقويه وتجمله وتشده او كالورق للغصن الندي فاذا ما زال وتحات ظهر الغصن عارياً فأى دقة اكثر من هذه الدقة في هذه الرواية الشريفة فضلاً عن جلاء الفكرة وقوة المراد. ومما جاء عنه عليه السلام في مجال قوة الصورة وجمالية الاداء وهو من لطيف احاديثه وبلغ تعبيراته قوله عليه السلام (ان المؤمن اذا اذنب كان الذنب نكتة سوداء في قلبه فان تاب ونزع واستغفر صقل قلبه فان زاد زادت حتى تغمر

قلبه) (٢٥)، والنكتة في هذه الرواية في كلمة (صقل قلبه) اذ لها خصوصيتها ونكهتها في الرواية وتعني ازالة تلك النكتة السوداء عن القلب فأنها لما كانت بمنزلة الوسخ في الثوب او الصدأ في السيف لذا يحسن ان يقال صقل قلبه من الدرن كما يغسل الثوب او بصقل السيف فيزول اثر الذنب منه وقد جاء المعنى بطريق الاستعارة ويتضمن كذلك تشبيهاً بارعاً فقد شبه الذنب بالنكتة السوداء وسرعان ما تزول وتذوب من قلب المؤمن اذا تاب عن ذنبه كما يصقل السيف من الدرن لكنها تعود اليه وتغمر قلبه لدى عودته للارتكاس في وحل الذنوب وكفى بهذه الصورة التشبيهية والاستعارة التبعية من روعة بيان وجمالية اداء وقوة صورة وبراعة تصوير.

ومن مظاهر قوة التركيب من خلال التقديم والتأخير دلالة على التفخيم او حسن الذوق او الاهمية مطلقاً قوله ﷺ على سبيل الكناية (يَمِينُ اللَّهِ مَلَأَى لَا يَغِيضُهَا نَفَقَةً سَحَاءَ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) (٢٦)، فسحاء هي من السح كما جاء في معاجم اللغة والسح شدة المطر يقال سحت السماء سحاً اذا هطلت بغزارة ويمين الله هنا اريد بها نعمة الله واصفاً اياها بالامتلاء لكثرة منافعها وعميم خيراتها وخص اليمين لأنها في الاغلب في افادة العطاء والكرم على سبيل المجاز نظير قوله تعالى ﴿يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ (٢٧)، ففي الحديث كناية عن كرم الباري تعالى وغناه فمن كانت يمينه ملأى بالخير فأنها تسح سحاً مستمراً في الليل والنهار فلا شك انه في منتهى الكرم والغنى والحق ان كرم الله تعالى لا يجد بحد فهو الباسط بالعطاء وهو المعطي بلا جزاء وهو الكريم الواسع بل اكرم الاكرمين وفي ذلك دلالة فنية على سعة رحمة الله تعالى وعطاياه لخلقه وجوده وسؤدده على عباده لا ينقطع كيف لا وهو مصدر العطاء وأس الكرم. وفي مجال التهويل من خطورة تسنم منصب القضاء وخطورته وفيه من الدلالة الاكيدة على هذا المنصب الشاق وفيه يقول ﷺ (من ولي القضاء فقد ذبح بغير سكين) (٢٨)،

ففيه تحذير شديد من مغبة مسؤولية القضاء وقد ابرزه عليه السلام بهذا التعويل المرعب الباعث في النفس على الفرع من هذه المسؤولية لخطورة هذه القضية وعظم هذا المنصب وقد جاء مغزى التشبيه هنا كدلالة منتزعة (اي فقد عرض نفسه لعذاب يجد فيه المأ كالم الذبح بغير سكين في صعوبته وشدته وامتداد مدته . شبه به التولية لما في الحكومة من الخطر والصعوبة او ذبح بحيث لا يرى ذبحه او المراد ان التولية اهلاك لكن بلا الة محسوسة فينبغي الا يتشوق اليه ولا يحرص عليه) ^(٢٩) ، وبهذا التشبيه يقرب المعنى فيه عليه السلام نظراً لخطورة منصب القضاء وشدته وفيه ايجابية ودلالة اكيده فنية لتجنب هذا المنصب او التصدي له على قدر المسؤولية مراعيّاً فيها وجه الله تعالى كون متعلق الامر يتحقق في حقوق الناس وسلامة ارواحهم والحرص على اموالهم وممتلكاتهم . ومن رائع قوله عليه السلام (من ابطأ به عمله لم يسرع به نسبه) ^(٣٠) فقد عرض عليه السلام الابطاء والاسراع مكان التقدم والتأخر فالمرسع متقدم والمبطيء متأخر فمن هو المرسع واقعاً؟ ومن الذي يتوهم انه هو المرسع؟ الحق ان الانسان في ضوء الحديث هو من يتأخر نتيجة عمله وقلة درايته وسوء خبرته يتأخر اذن عن بلوغ الآمال واحراز الفضل اذا كان معتمداً على حسبه ونسبه فقد شبه الحديث الشريف ببلوغ القول وفصيح الكلام عمل الانسان ونسبه بالدابة حين تبطئ وتسرع لأن هاتين الصفتين في خواصها في الاغلب حين تقطع المسافات الشاسعة فاذا ابطأت الدابة فسيتأخر الراحل عن بلوغ الهدف المرسوم واذا سرعت مكنته من الوصول وحقت له بغيته واماله بفضل الاسراع والمتحصل من الحديث دلالة تشبيهية ان غاية الامل والفضل ومواطن الفخر لا تحرز الا بالكد والكدح ونيل الشرف وطلب المعالي والعمل الشريف وليس بالاتكاء على قضية الحسب والنسب التي لا تغني ولا تسمى من جوع؛ لذا جاءت الروايات المتكثرة المحاربة لهذه الخصال

غير الحميدة. ومن التشبيه البليغ الناصع قوله ﷺ (المؤمن مرأة أخيه) ^(٣١) ، فان المتبادر من هذا الحديث الشريف ان المؤمن الواقعي الناصح لأخيه والمرشد له في كل حركاته وسكناته يعد كالمرأة الصافية العاكسة اذ يقوم بتبصيره ببواطن الامور ومواضع الرشد ويطلعه على خفايا العيوب فاذا ما نظر للمحاسن استحسناها وعمل على الاستزادة منها واذا ما اتى المعاييب فانه يستهجنها لكي يتجنبها ففي مقام التشبيه هنا قد شبه ﷺ المؤمن حيال اخيه المؤمن بالمرأة من حيث انعكاس الصورة فانه - اي المؤمن - يرى في اخيه اثار فعله ان خيراً فخير وان شراً فشر ناصحاً له ان كانت قبيحة ومادحاً اياه ان كانت حسنة وبهذه تحقيق لمعاني الاخوة الحقيقية والواقعية وكفى بهذا التشبيه من دلالة موحية ومن وقع فني متميز وورد عنه ﷺ من روائع كلمه بديع لفظة قوله (المؤمن موه راقع) ^(٣٢)

ففي الحديث الشريف تشبيهان بليغان فقد شبه المؤمن بخارق الثوب وهو (موه) وذلك عند ارتكاب المعصية وشبهه كذلك بالراقع حين يرقع ثوبه ويخيط فتقه وذلك عند التوبة حين يذنب وقد حذف وجه الشبه وهو الافساد والاصلاح وحذفت اداة التشبيه والمراد من ذلك ان المؤمن اذا اساء فانه يحس وان اخطأ فيندم وكأنه يوهي دينه بمعصية ويرقع بالتوبة فقد شبهه ﷺ بمن يخرق ثوبه مبادراً لترقيعه فهو يرقع ما خرق ويرتق ما فتق فان الاصل هو ان المؤمن كالموهي الراقع، وفي هذا دلالة والتفاتة فنية تجعل المؤمن عادة المبادر للتوبة فور القيام بمعصية وهذه من صفاته كي تجعله محافظاً على ملاك ايمانه. وجسد كلامه ﷺ المجاز في ارقى مستوياته كقوله ﷺ (العلم رائد والعدل سائق والنفس حرون) ^(٣٣) ، ففي هذا المجاز شبه الرسول ﷺ علم الانسان بالرائد حين يتقدم القوم ليدهم على الفضاء الواسع والمكان الخصب كونه الخبير بالأسرار العارف بالأمور قد خبر الدهر وعرف

اسراره فبقيادته وفضل علمه انتشل قومه وانقذهم من مواطن الهلكة ونقلهم الى بر الامان والعقل ، فلا شك هو السائق فهو الربان للسفينة ومديرها مدبر امورها كونه يحث الانسان على انتهاج النهج السليم والدلالة على الطريق القويم دون تأثير لشهوات النفس ونزوعها والعاطفة وملذاتها وعقباها ولكن هل من فائدة لفضل العلم والعدل السائق اذ كانت النفس حروناً؟ الحق ان النفس حرون فهي كالذابة الحرون حين تتراجع وتتقاعس فان اريد لها الجري توقفت مما يضطر راعيها لاستخدام السوط لحملها على الاطاعة والسير في الطريق الصحيح. وتأتي الامثال غالباً لتأخذ موقعها في التأثير البليغ وعادة ما تستخدم كما في القرآن الكريم لتقريب المعنى وشحذ الذهن وحمل النفس على اتباع المعاني السامية نتيجة تقريب الحسي بالمعنوي وبالعكس وقد تحتل الامثال موقع الصدارة لنقل المعاني الواقعية والتأثير في النفس كي تكون دروساً بليغة ومن ذلك قوله ﷺ (مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد اذا اشتكى منه عضو تداعى سائرُه بالحمى او السهر) ^(٣٤)

فان المؤمن لأخيه يحمل له ما يحمل اذ يجب له ما يجب لنفسه ويكره له ما يكره لها مليباً دعوته - عائداً له في مرضه - ناصحاً له في كل اوقاته حافظاً له بظهر الغيب، والمؤمنون بعد اخوة في السراء والضراء يفرح احدهم للآخر ويغتم بغمه وهكذا هي حالتهم في شتى الامور ومختلف الامراض والاعراض، مثلهم ما يعترى الجسد فان دب داء النعاس تراخى ومعه العين وسكن القلب وهدأت الرئتان ومعها جميع الحواس ما تسبب استسلام الجسد للنوم اذ لا يعارض اي عضو من اعضائه او يبايع وبذلك يحصل الدافع المطلوب والغرض المنشود وكفى بهذا المثل من دلالة ناطقة ونكتة فنية ادبية تحكي بليغ نطقه ﷺ وناصر لفظه. ومن بليغ تشبيهه ﷺ لتأكيد المعنى وتجسيده بصورة حسية واقعية قوله (مثل الصلوات الخمس كمثل نهرٍ جار

عذب على باب احدكم يغتسل فيه كل يوم خمس مرات فما يبقى ذلك من الدنس) (٣٥)، فقد اشار ﷺ الى فضيلة الصلاة واهميتها فهي فضلاً عن كونها نور الوجه وملاك الايمان وميزان الاعمال والصلة بين العبد وربه فهي قربان التقى ومعراج المؤمن جاء التشبيه في هذا الصدد وكان القصد منه ومن (فائدة التمثيل التأكيد وجعل المعقول كالمحسوس حيث شبه المذنب المحافظ على الخمس بحال مغتسل في نهر كل يوم خمساً بجامع أخذ ان كلاً منهما يزيل الاقدار وخص النهر بالتمثيل لمناسبته لتمكين حق الصلاة ووجوبها لان النهر لغة ما أخذ لمجره محلاً مكيناً) (٣٦)، وهذا لاشك ان دل فإنها يدل على قيمة الصلاة وعظمتها ومكانتها.

ومما يمكن ان يدخل تحت عنوان اسلوب الحكيم بمعنى تلقي المخاطب بغير المنتظر وذلك بحمل الكلام على غير المراد تنبيهاً على انه الاولى بالقصد ومن ذلك قوله ﷺ (خير البقاع المساجد وشر البقاع الاسواق) (٣٧)، وبهذه المقابلة ابراز لقيمة كل منهما في مستوى نمطي يعبر عن حال كل منهما فقد (قرن المساجد بالأسواق مع ان غيرها قد يكون شراً منها ليبين ان الدين يدفعه الامر الديني وكأنه قيل : خير البقاع مخلصه لذكر الله مسلمة من الشوائب الدنيوية فالجواب من اسلوب الحكيم فانه سئل اي البقاع خير؟ فأجاب به وبضده وسبق ان هذا وصف المحل بما يقع فيه) (٣٨)

ليعطي كل ذي حق حقه فمن المتعين ان موقع المسجد مظنة الالفة والتجمع والتحابب والدعوة الى الله ولم شمل المسلمين ويعاكسه موقع السوق ففيه غالباً الغش والاحتيال واللهو عن ذكر الله تعالى والركون الى الدنيا.

ومما جاء على سبيل التشبيه في موضع الاستعارة قوله ﷺ (اكثروا ذكر هادم اللذات) ^(٣٩) ، وفيه تذكير وحث على ذكر الموت ليبقى المؤمن بين رجاء وخوف لكبح جامع النفس والسر في ذلك انه ﷺ (شبه اللذات الفانية والشهوات العاجلة ثم زوالها ببناء مرتفع ينهدم بصدمات هائلة ثم امر المنهكم فيها بذكر الهادم لئلا يستمر على الركون اليها ويشغل عما عليه من التزود الى دار القرار) ^(٤٠) وهادم اللذات هنا استعارة مكنية وفي ذلك دلالة مؤكدة ولفتة فنية لحمل الانسان على تذكر هذا المصير المحتوم والعاقبة النهائية لئلا تجرح به هوى النفس او تشط به اعماله لذا فان استحضار قضية الموت واستذكاره دائماً غالباً ما يكبح تطلعات النفس الى نيل ما لا يرضى الله تعالى. هذا ولو اردنا استقصاء الامثلة الاخرى لطلال بنا المقام وسوف نكتفي بهذا القدر تماشياً مع مقدار البحث واخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين.

الخاتمة

ان دراسة متطلبات الفن الادبي في اطار البلاغة وعلومها مطلوب لأغراض دينية ودينية لارتباطها بالقرآن الكريم والحديث الشريف ومعرفة تراثنا الادبي بعد ذلك؛ لذا فان خير ميدان للدراسات الادبية والفنية هو الاتجاه الى الكتاب والحديث النبوي وقد اتجهت مهمة البحث على بيان جمال الشكل والمضمون لاحتواء كلامه ﷺ على الصدق الخير والجمال وهي صفات منسجمة مع التبليغ بالرسالة المؤيدة بالمعجزة فمن مميزات بيانات النبي الاكرم ﷺ انها تتعلق بجوامع الكلم التي انفرد بها دون سائر البشر وهو افصح من نطق بالضاد لذا رجح حديثه ﷺ على كفة الشتر من الاساليب الاخرى للناس العاديين لتطور فنونه وقد تميزت اساليبه الادبية بالدقة الفائقة والاشراقة العالية والبيان النبوي بعد معني بكل لفظة ، وكلماته ﷺ مختارة بحسب الفطرة ونور الوحي بما يناسب كل مقام فتجمع الصورة الى جانب وحدة التركيب بما تتمخض به من دلالات وايحاءات بيانية وفنية تجعلها في الذروة في البلاغة والقمة في الفصاحة من خلال ما توحيه من التعبير التمثيلي البلاغي بالجرس الفني الرائع فضلاً عن الصدق الفني والتعبير بأمانة ودقة المشاعر والاحاسيس وقد تجلّى كل ذلك باختيار نخبة من الاحاديث التي ضمت تلك الباقية ذات المسحة الادبية والبلاغية والقوالب الفنية بما جاء في غضون البحث وجنات مفاصله.

قائمة الهوامش

- (١) ابن منظور : لسان العرب ١٣ / ٣٢٦ .
- (٢) المصدر نفسه ١٣ / ٣٢٨ .
- (٣) ينظر : عبد العزيز عتيق : فن النقد الادبي ص ١٠ .
- (٤) اسعد علي : المنتخب الهاني ص ٢٦٢ .
- (٥) المرجع نفسه والصفحة .
- (٦) المرجع نفسه والصفحة .
- (٧) المرجع نفسه والصفحة .
- (٨) اميل بديع وصاحبه : المعجم المفصل في اللغة والادب ٢ / ٩٥٦ .
- (٩) المرجع نفسه والصفحة .
- (١٠) ينظر : السيد قطب : منهج الفن الاسلامي ص ١٥ .
- (١١) ينظر : بركات محمد : علاقة الفن بالفلسفة والديانات قبل الاسلام ص ١٢٢ وما بعدها - بحث منشور في مجلة المنهاج ج / ٢٦ .
- (١٢) ينظر : الجناتي محمد ابراهيم : الفن والجمال ص ١٥ وما بعدها بحث منشور في مجلة الاجتهاد والتجديد - العدد ١٨ .
- (١٣) ينظر : سيد قطب : منهج الفن الاسلامي ص ١٦ .
- (١٤) المرجع نفسه والصفحة .
- (١٥) سيد قطب : النقد الادبي ص ٤٠ .
- (١٦) المرجع نفسه ص ٤٢ .

- (١٧) المرجع نفسه ص ١١٤ .
- (١٨) المرجع نفسه ص ٢٠٧ .
- (١٩) المرجع نفسه ص ٢٠٧ .
- (٢٠) محمد رفعت : دراسات في البلاغة النبوية الشريفة ص ٢٨٩ وما بعدها .
- (٢١) محمود البستاني : تاريخ الادب العربي ص ٦٠ .
- (٢٢) ابن رشيق : العمدة ص ٨٠ .
- (٢٣) ينظر : الشايب احمد : الاسلوب ص ٢٢٥ .
- (٢٤) الشريف الرضي : المجازات النبوية ص ٢٥٣ .
- (٢٥) المجازات النبوية ص ٣٠٤
- (٢٦) المصدر نفسه ص ٩٧ .
- (٢٧) الفتح / ١٠ .
- (٢٨) السيوطي : الجامع الصغير ٦/ ٢٣٨ .
- (٢٩) المناوي : فيض القدير ٦/ ٢٣٨ .
- (٣٠) المجازات النبوية ١٠٢ .
- (٣١) المصدر نفسه ص ٧٩ .
- (٣٢) المصدر نفسه ص ٧٢ .
- (٣٣) المصدر نفسه ص ٢٠٤ .
- (٣٤) الغزالي : احياء علوم الدين ٢/ ١٩٤ .

(٣٥) ابن الاثير : جامع الاصول ٣٨٩ / ٩ .

(٣٦) فيض القدير ٥٠٨ / ٥ .

(٣٧) جامع الاصول ٤٤٥ / ١ .

(٣٨) فيض القدير ٤٧٠ / ٣ .

(٣٩) الجامع الصغير ٨٤ / ٢ .

(٤٠) فيض القدير ٨٤ / ٢ .

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- ٩- السيد قطب : منهج الفن الاسلامي - دار القلم - بيروت - ١٩٦٥ م .
- ١٠- الشايب احمد : الاسلوب - مكتبة النهضة المصرية - ١٩٦٥ م .
- ١١- الشريف الرضي : المجازات النبوية - المطبعة ستارة - قم - ط١ - ١٤٢٢ هـ .
- ١٢- عبد العزيز عتيق : في النقد الادبي - دار النهضة الادبية - بيروت - ط٢ - ١٩٧٢ م .
- ١٣- الغزالي : احياء علوم الدين - مطبعة العاني - بغداد - ١٩٨٤ م .
- ١٤- محمد رفعت : دراسات في البلاغة النبوية الشريفة - طباعة المجلس الوطني للأعلام بدولة الامارات - ط١ - ١٤٣٦ هـ .
- ١٥- المناوي : فيض التقدير شرح الجامع الصغير من احاديث البشير النذير - دار الفكر - بيروت - ١٤٠٣ هـ .
- ١٦- ابن منظور جمال الدين : لسان العرب - دار احياء التراث العربي - بيروت - ١٩٨٨ م .
- ١- ابن الاثير : جامع الاصول في احاديث الرسول تحقيق عبد القادر الارناؤوط - دار الفكر - بيروت - ١٤٢٠ هـ .
- ٢- اسعد علي : المنتخب الهاني - مطبعة النعمان - لبنان - ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .
- ٣- اميل بديع يعقوب وصاحبه : المعجم المفصل في اللغة والادب - دار العلم للملايين - بيروت - ط١ - ١٩٨٧ م .
- ٤- بركات محمد : علاقة الفن بالفلسفة والديانات قبل الاسلام - بحث منشور في مجلة المنهاج - العدد (٢٦) - ١٤٢٣ هـ .
- ٥- البستاني محمود : تاريخ الادب العربي - مؤسسة الطبع والنشر للاستانه الرضوية المقدسة - ط١ - ١٤١٣ هـ .
- ٦- الجناتي محمد ابراهيم : الفن والجمال ترجمة حسن مطر - بحث منشور في مجلة الاجتهاد والتجديد - العدد (١٨) - ١٤٣٢ هـ .
- ٧- ابن رشيق : العمدة - مطبعة السعادة - مصر - ١٤٢٥ هـ - ١٩٠٧ م .
- ٨- السيوطي عبد الرحمن : الجامع الصغير من احاديث البشير النذير - دار الفكر - بيروت - ط٢ - ١٣٧٣ هـ .

